الأموات الذين نعرفهم ...

قصة جديدة

بقلم شوقي بغدادي

أسود .. أسود ..

كحلي .. بدأت أعدّ الفساتين السوداء ، والبذلات الغامقة دون ان يشعروا بي . كان جلياً ان هذا الفستان لم يكن لونه اسود . وان هذه البذلة ليست للابسها . كنت أرتدي انا بذلة كحلية . اما عمرها فلا اذكره . إلا انني اذكر انني لبستها في ايام الحرب الاخيرة . فهل كانت جديدة في ذلك الزمن ؟ .. لا اذكر .

بدأ عجوز الى جواري يداعب طفلة صغيرة أمامه بصوت خافت :

— أتذهبين الى المدرسة ؟ . إن وجهك وسخ .. ألا تغسلينه كلّ صباح ؟ .

أتاح الصمت المخيّم ان يسمع الجميع صوت العجوز ، فبلع كلماته ، ولكنّ نظرةً واحدة الى الوجوه أشعرته أنهم يريدونه ان يقتل هذا الصمت الثقيل. فعاد الى سؤال الطفلة بلهجة اكثر مرحاً كأنه نسي لماذا هو هنا .

عندما بدأ الناقوس يدقّ ، كانت السماء غائمة ، وهدير البحر القريب يملأ القاعة ، ثم رعدت السماء وبرقت ، فترك العجوز الطفلة وتطلّع الى السماء من النافذة ثمّ قال :

— في السماء مطر ...

خرج الرجال ، وبقيت النساء . كان عليّ ان أخرج مع من خرجوا ، ولكنني تواريت . كانت السماء قد بدأت تُرسل رذاذها ، ولم يكن معي معطفٌ واق .

وقفت امام دكان خضريّ انتظر مرور الموكب . كانت السماء تمطر في تلك اللحظة، وقد بدأت تهبّ ريح باردة خفيفة. انا أعرف انه اذا امطرت السماء هدأت الريح . ولكن الريح كانت تشتد .

عندما ظهر اوّل رجل من صوب الكنيسة ، سألني زبون كان يختار برتقالاً من «سحارة» الخشب :

— هل تعرف الميت ؟ .

قلت له دون ان ألتفت :

— ميخائيل ديب ..

— هل هو كبير في السنّ ..

عندئذ التفتُّ الى السائل . كان رجلاً قصيراً ، سميناً . لم اكن بحاجة الى ان أعاشره كي أعرف انه فضولي ، فقد كان ينبش «السحارة» وراء برتقالة، وعيناه مع ذلك تسرقان النظر نحو الجنازة القادمة. لم أكن أعرف الميت شخصياً . لقد عرفت اسمه فقط اليوم من « حنّة » عندما كانت ترتب سريري صباحاً . كان قريبَ زوجها . وكنت أحبّ حنة ، وكانت تحبني كثيراً .

قلت له :

— لا اعرف ..

فترك كيس البرتقال من يده مثبتاً عينيه في وجهي ، ثم وقف الى جواري :

— كيف تعرف اسمه ولا تعرفه هو ..

— ألا يجوز ان يحدث شيء مثل هذا !

عندما صارت الجنازة امامنا نزلت الى الرصيف ومشيت مع الناس . لم ارفع رأسي الا بعد ان اقتنعت انني صرت واحداً من المجموعة ، فرأيت النعش الاسود من بعيد فوق الرؤوس . كان المشيعون كثراً ، وقد استغربت ذلك، ولكن بعد ان درنا اوّل منعطف لاحظت ان العدد نقص فجأة الى اقل من نصفه ، فاستحييت ان اهرب ايضاً . وهكذا شيّعت الميت الذي لا اعرفه حتى المقبرة .

ظلت السماء تمطر طوال الطريق كأنها كانت تريد ردّنا عن اللحاق به. وفي طريق العودة فتحت علينا أفواهاً واسعة. وكنا قبضة من الرجال ، فاخذنا نركض على غير هدى بين القبور ، ولكنني فضلت اخيراً ان الجأ الى جذع شجرة سرو ضخمة حتى هدأت السماء ، فعدت اخوض في برك الماء والوحل حتى وصلت الى الطريق العام .

— يا حنّة .. لقد تبعتهم حتى المقبرة .. فتبللت ثيابي .. وسقطت في الوحل كثيراً . هل انت حزينة عليه يا حنة ؟ .

لم تكن حنة حزينة عليه بقدر ما حزنت عليّ وانا أروي لها قصتي المحزنة تحت المطر .

— سأمرض يا حنة .. وساموت انا ايضاً ..

وتلاقت عيوننا في ابتسامة. لقد كانت مزحة ثقيلة . ما كان

أطيبك يا حنة في تلك اللحظة !.

قلت لها :

– لولاك يا حنة ما دخلت الى قاعة فيها عشرون رجلا وامرأة لا اعرف واحداً منهم .

فقالت لي :

– ولكنك تعرفني انا ..

ضحيح . كنت اعرفها . وكان هذا يكفي . كنت اقول لها احياناً إنها مثل امي . فيصطبغ وجهها المغضّن بالدماء ، وتلوك بعض كلمات غير مفهومة ، فيهزني ارتباكها ، وأودّ لو اضمها الى صدري وأقبلها .

في المساء ، عندما كنت اعود من عملي مرهقاً ، وقبل ان أصعد الى غرفتي كنت أدق عليهم الباب ، وأدخل على الفور . فقد كنت اعرف واثقاً انهم في تلك اللحظة متحلقون حول النار .. هي .. وزوجها النحيل المتهدّم .. وابناها الصغيران .. هيلانة وجبرائيل .. فينهضون لاستقبالي وقد أضاءت وجوههم ابتسامة مشرقة . وتهبّ حنة فترفع فتيلة مصباح الكاز ، وتدفن ركوة القهوة في المنقل ، وتسألني عن عملي ، وأسألها بدوري عن ابنها الكبير ، وهل لا يزال غائباً عن البلدة ، فتتنهّد ، وتغرورق عيناها بالدموع . وكثيراً ما كان يرفع الزوج رأسه فيسألني :

– متى ستسافر الى الشام يا رضوان افندي ..

وكان كلما سألني ذلك قال لي بعدها :

– اذا سافرت فلا تنس ان تسلم لي على حكمت افندي في سوق ساروجة قرب حمام الجوزي . .

اما حكمت افندي هذا فيعلم الله وحده اين مكانه. وكنت اقول له :

– حكمت افندي يسلم عليك ..

فيقص عليّ قصة صداقته له منذ ايام الحرب الاولى . في ذهن هذا الرجل كانت صورة صديقه تلخص ماضياً لا يزال يتألق كجمرات النار التي يمدّ فوقها يديه المعروقتين . لقد سألت له عن صديقه كثيراً في سوق ساروجة ولكن لم يذكره احد . لا بد ان حكمت افندي هذا قد مات منذ سنين ، ولكنني لا أزال احمل له تحيات صديقه كلما سافرت واعود بمثلها.

في تلك الأمسيات التي كنت اقطع منها دقائق في تلك الغرفة الواحدة التي تشكل كل البيت ، كنت اتذكر اهلي واتصورهم حول النار ايضاً ، ولكن في غرفة غير هذه الغرفة . كانت حنة في ايام تعارفنا الاول ترتبك لقدومي ، فلا تريدني ان ادخل قبل ان ترتب الغرفة . وكثيراً ما كنت أفاجئها وهي تلوب في ارجاء الغرفة تحاول ان تخفي فقرها عن عيوني قدر ما تتيح لها يدها الماهرة الناشطة ذلك . ولكنها ألقت سلاحها اخيراً ، فقد كنت بالمقابل لا احاول ان اخفي عنها شيئاً .

الوحدة .. ذلك هو الوحش الذي كنت اخشاه. عندما تغيم السماء يهرب كلٌ الى بيته وناره واهله .. اما انا .. فلم يكن لي اهل يوم جئت هذه المدينة . ولكن ها قد مرّ عامان وبدأت أنسى تلك الأيام الموحشة الأولى . منقل من النار صغير يدخل به عليّ في الليل فتى صغير .. صحن من البرغل بالعدس تحمله فتاة صغيرة ارهقت عينيها القراءة المستمرة تحت ضوء الكاز .. سؤالي هل تحتاج الى شيء .. فنجان القهوة التي ترتجف بـه يد الصغيرة كل صباح مع هذه التحية الخالدة الجديدة ابداً: سعيدة!

سعيدةٌ .. مباركةٌ ايامكم يا من احلمهم في قلبي ادفأ ذكرى يحملها شاب . تلك الاشياء الصغيرة اليومية كانت تحمل الى غرفتي الفارغة انفاس البشر المحبين . ولكم من مرة حاولت ان اردّ صحن الطعام، فكانت انكسارة عينين وحدها قادرة على ان تهدّم كبريائي ، وينهار لها ارتباكي وحيائي فأشكر في خجل ، ثم تمرّ الأيام ، فأصفّق ، وابدأ الأكل على الفور .

وإن أنس لا انسَ تلك الليلة التي شعرت فيها ان امعائي موشكة ان تتمزّق ، فبدأت أتأوّه وانا أجالد الصرخات العالية تكاد تتفجّر . كنت وحدي ، وكان الليل في الخارج هادئاً عميقاً كأنه جبّ عميق يلتهم جميع اوجاعي وصرخاتي، فاذا انا في صحراء مخيفة ، والبشر على مرمى صوت مني . بدأت أتمتم من بين اسناني :

– آه .. آه .. يا أمي .. يا أمي ..

كالطفل وهو يفزع الى الصدر الذي يحميه من شرور الدنيا جمعاء . مثل ذلك الطفل كنت اتوسل وأناديك يا أمّ ، واذا بالباب يفتح ، ويدخل شبح يقول لي على الفور :

– رضوان .. يا الله .. لقد قال لي قلبي من النهار .

لقد قال لها قلبها ! تلك هي المعجزة . في صميم الليل ، كما يفتح التوأم النائم عينه على اوجاع طعنة تلقاها اخوه في طرف بعيد من العالم . مثله ، نهضت هذه المرأة العجوز كأنها ملاك طيب يطوف في الليل مواسياً المعذبين من الناس .

اما أنت يا حنة ، فلقد أنقذتني من مرضي . أمـــا أنا فماذا صنعت لك ؟! عندما سقطت من الاعيـاء بعد صراع سنوات وقالوا لي : حنة مريضة ، ماذا استطعتُ ان أعمل . لقـد اتيت لك باذكى طبيب . ولكنك كنت خارجة على نطاقه بعـــد صبر سنين على آفـــة كانتَ تأكل احشاءك وانت صابرة كالقديسات . إنهـــا الغرفة الرطبة الباردة .. لا .. بل هو العمل المستمر .. لا .. بل هو نقص في التغذية .. لن افتش مع احد عن الاسباب . أنت الآن امامي غير قادرة على ان تملأي ركوة القهوة وتدفنيها في منقل النار . وهـــذه هي هيلانة ، واجفة مقرورة ، تحـــاول ان تقرأ درسها ولكنها لا تفهم . وها هو جبرائيل ذاهـــل يتطلع اليّ كأنني استطيع صنع المعجزات . وابنك الغائب .. هـذا الانسان الذي لم يعد حتى في مرض امـه . لكم وددت ان يعود ، فتفرحي به ، وتمثالي للشفاء . اما زوجك ، فقد نسي صديقه القديم حكمت افندي ولم يحملني اليه تحايا الوداد العتيق . ألم تشعري يا حنة في تلك الايام انك تقضين على أسرة كاملة لو رحلت عن دنيانا . فلتبذلي الجهد كي تشفي ، إننا نحتاج اليك جميعاً .

لم يكن في البلدة زهر يا حنة كي امـــلأ به بيتك الصغير . ولكني ملأته بكثير من الاشياء ، وكنت تشكرين بعينين مات فيهما النور الوضيء الاول ، ولم يبق مـــن القديسة إلا الجسد الذي يتنفس .

سألتني ذات مساء :

— من يرتب لك غرفتك ؟.

قلت لها :

— أنا ..

قالت :

— سأرسل لك هيلانة ..

— إن هيلانة غير قادرة على مثل هذا العمل . إنهـا تلميذة مدرسة ايضاً .

كانت هيلانة الى جوارنا تستمع الى حوارنا ولا تتدخل . هذه الصبية التي لم تتجاوز العشر سنوات كانت تحسّ بالمأساة في تلك اللحظة ، ولكنها لم تكن تعرف كيف تتكلم .

قالت حنة :

— متى ستسافر ؟

قلت :

— لماذا ؟ هل لك أنت حكمت خانم كي اسلم لك عليها . لن اسافر .. سأظل الى جوارك ..

فابتسمت . ولولا انهـــا كانت متعبة لضحكت . وكم من توقظه من حلم ، استيقظ زوجها من غفلة على اسم صديقه فسألني سؤاله الخالد ، وعندئذ ضحكنا جميعاً ، الا المريضة ، فقد سعلت سعلتين جافتين .

ولكن مرضك طـــال يا حنة . فاضطررت ان اسافر . وعندما عدت ، لم اشعر بيدك على متاع غرفتي ، ولم اجـدك ساعة ذهبت الى بيتكم . كانت هناك امرأة غريبة قيل لي انهـا اخت زوجك . اما الأسرة فكانت كما تعهدين ، إلا ان هيلانة كانت لا تقرأ ، فقد اخرجها ابوها من المدرسة بعد ان متّ كأنها لم تقرأ الا لك . وأما ولدك الغائب فقد عاد .. ولكن مع امرأة . واما أنا ..

اتذكرين يا حنة يوم اخبرتني بموت قريب زوجك وخرجنا وراءه تحت المطر . لقد سألني في ذلك اليوم احد الغرباء :

— هل تعرف الميت ؟

فقلت له اسمه الكامل مع انني لا اعرفـه ، ومشيت وراء نعشه . ولكنني في هذه المرة لم اكن حاضراً ، ولو سألوني عن اسم الميت لعجزت . انا لا اعرف اسمك الكامل يا حنة . ولكنني اعرفك انت جيداً . ومع ذلك فقد رفضت ان تدعيني امشي وراءك .

لماذا مت في غيابي يا حنة .. لماذا ؟ ترى أأمطرت السماء في ذلك اليوم كعادتها ..

شوقي بغدادي

طرطوس — من رابطة الكتاب السوريين

كامل بكداش واولاده

مستودع الورق المميفان الممتاز

وورق الجريدة وعموم

اصناف الورق

والكرتون

تلفون ٨٤ — ٥٥ شارع المعرض

بيروت